تحريف الفلسفة وأثره على المجتمع الإنساني والتعليم الأكاديمي

الباحث

محمد سمير ناصر*

الجمهورية اللبنانية

اكاديمية الحكمة العقلية – قم - ايران

مقدمة تمهيدية

ان الناظر في الفلسفة وممارسة التفلسف عبر العصور يجد نفسه أمام ثلاثة طرائق يمكنه من خلالها الخوض في المباحث الفلسفية تبعا لما يراه من معنى الفلسفة والتفلسف وحيث إنه قد اشتهر وذاع - خصوصا في الفكر الغربي – النظر إلى الفلسفة على أنها ممارسة للتفكير والتأمل في ما وراء ظواهر الأمور والذي يفرض نحو التفكير هو البنية النفسية والفكرية والإجتماعية للمفكر والمتأمل وقيمة أي تفلسف في مدى صلاحيته للإجابة عن التساؤلات بنحو مقنع دون أن يكون لذلك مساس بما يسمى باليقين والواقع وبالتالي فإن النظر إلى كل المتفلسفين عبر التاريخ في مقام الدراسة والبحث سيكون على حد سواء ولن يكون درس الفلسفة إلا درسا لأولئك المتفلسفين على مر التاريخ وسيكون الإطلاع على أي فكر من خلال صاحبه والنتيجة ستكون دراسة الفلسفة دراسة في تاريخ الفلسفة حتى يتأهل الدارس للقدرة على اختيار فكر أحد متفلسفيها باقتناعه به أو الإبداع لفكر جديد يجعله في طول القافلة للفلاسفة على مر التاريخ أو يزهد في الفلسفة لكثرة مشاربها وخلافاتها كما هو حال الأكثر.

أما كيف يكون التفلسف فهو سؤال فلسفي وبالتالي سيكون هو بدوره موردا للإجابات المختلفة ففكرة وجود المنهج في التفكير الفلسفي هي فكرة فلسفية تبقى في حيز الإنتماء إلى مبدعها وقيمتها بمدى مقنعية دليلها والنتيجة ليس للتفلسف قبل التفلسف منهج وعليه سينحصر درس الفلسفة بالجانب التاريخي الإستعراضي الذي قد يضم إليه شيئا من الإثارة للنقاش الحر في مسائل معينة إثراء لفكر الدارسين.

ولأجل سيطرة هذه النزعة في النظر إلى الفلسفة فقد أولي التدوين في تاريخ الفلسفة اهتماما بالغا وتم تقسيم التاريخ إلى حقب فلسفية تعبر كلا منها عن مرحلة من مراحل التطور والتغير للفلسفة وتم اعتبار ما وصل إليه الفكر البشري في مجال التفلسف في العصر الحديث ارقى تطور له على حد التطور في الجوانب العلمية الأخرى مع فارق جد فارق وهو أن ما يطلق عليه صفة العلم هو خصوص تلك العلوم المعتمدة على التجربة والمتحدة في المنهج المحكوم به كل من ينتمي إلى قطاعها مع الاخذ بالإعتبار أن هذا المنهج هو ثمرة التطور الفكري الفلسفي في عصر الحداثة في قبال من كان يقصي التجربة ويزدريها كما هي سمة العصور السابقة بطابعها العام كما يحاول تقديمها .

أما الفلسفة فمسألة المنهج إحدى قضاياها فلا يفرض قبل التفلسف فلا قيود على من يريد التنظير في غير العلوم التجريبية أي على من يريد ممارسة الفلسفة فالفلسفة ممارسة فكرية بنحو خاص وليست قضايا بعينها يقع البحث والدرس عنها ولذلك صار وجه التطور الفكري ترك ادعاء اليقين لأنه سمة العصور السابقة على الحداثة أي عصور الظلام كما يسمونها .

ولأن حال الفلسفة هو سواء في جميع القضايا التي يقع عليها فعل التفلسف فالأمر ليس مقصورا على قضايا المعرفة ولا على قضايا الوجود بل كذا قضايا السلوك والتنظيم العملي الشامل للمدن والمجتمعات والأفراد وكما تخلي عن كل قبليات البحوث النظرية ليتحول البحث النظري إلى بحث في نظرية المعرفة في أغلب الأحيان فكذلك في البحوث العملية ولكن لم يكن حال العمل حال الفكر إذ رفع مطلق القيد العملي موجب للفوضى والفساد لأن عمل كل فرد يمس من حوله وكلما اتسعت سلطته كلما اتسعت دائرة التأثر به وإن لم يتجاوب الآخرون معه بخلاف الفكر فإن انعدام المنهج فيه ليس كذلك إذ التأثير من صاحب فكر ما في غيره مخصوص فيمن يتجاوبون ولذلك كانت الحاجة إلى الضبط مسلمة ولكن لما كانت الأديان والفلسفات العملية بنفسها موضع بحث في الفلسفة فبدل أن ينظر إلى البحث العملي من زاوية الواقع والفضائل والرذائل نظر إليه من الجهة التي لا يقين ولا تسليم إلا بها وهي الحاجة إلى النظام والنتيجة أن البحث العملي سيتحول إلى بحث في القانون الذي

ينظر إليه من جهة طريقيته إلى غرضه وهو حفظ النظام ولا موضوعية لأي فعل أو ترك أو أمر او نهي إلا من جهة الوصول به إلى حفظ النظام ومنع الفساد العام.

والنتيجة لكل ذلك أن الفلسفة بقضاياها المبحوث عنها فيها لم تعد ذات مرجعية في حياة وسلوك الإنسان بعدأن كانت المرجعية الوحيدة مطلقا .

هذا ما أنتج أيضا انعدام التربية الفلسفية بقسميها النظري والعملي في مجال التعليم والإستغناء بالعلوم الرياضية والتجريبية والتربية الوطنية ولذا صارت المدارس والجامعات تنتج المتميزين في مجالات تدريسها فقط مع افتقارهم إلى كثير من المقومات التي يجب توفرها في الإنسان على المستوى الفردي والأسري والإجتماعي فصارت أجيال بكاملها ضحية التبعية للرؤى الحزبية والعصبية وسهلة الخضوع للخطابات السياسية فكان ما نحن عليه من التناحر والتقاتل والإنقسامات .

ونحن سنعرض في هذا البحث إلى سير الفلسفة منذ نشأتها إلى حين تحريفها وانحرافها مما أدى إلى الإستعاضة عنها بما يسمى بالتفلسف من خلال العوامل التي أدت لذلك وأثر ذلك على التعليم بشكل عام والأكاديمي بوجه الخصوص مع التركيز على ثلاثة امور:

- التعاون والتآزر غير المقصود بين الدينيين والعلمانيين في الشرق والغرب على تقديم الفلسفة قربانا بلا تقرب.
- التركيز على صناعة الأبطال الفلسفيين في عصري التنوير والحداثة والتباين بين آراء جملة منهم وبين الصورة التي قدمهم بها صانعو التنوير والحداثة.
- التنويه والتعريض معا بالحركة التي تعزم اليونيسكو القيام بها من إدخال التعليم الفلسفي إلى المدارس الإبتدائية والمتوسطة والتغيير في مجمل التعليم الفلسفي وذلك ببيان منشأ هذا الإهتمام فيما يبدو ومؤدى تطبيقه بالنحو الذي يتبنونه من معنى الفلسفة .

تأسيس الفلسفة[1]

بدأت الفلسفة وتأسست بنحو تعليمي على يد المعلم الأول أرسطو كمصطلح شامل لكل العلوم الحقيقية القياسية المحكومة بمنهج يحقق غرضها ألا هو منهج البرهان الذي عنى أرسطو نفسه بتدوين قواعده في علم المنطق .

وهذا المصطلح وإن كان ظهوره سابقا على أرسطو كما يروي التاريخ نسبته إلى فيثاغورس أو الحكيم صولون إلا أن المحاولات التي صدرت من السابقين على أرسطو لم تكن لترتقي إلى رتبة العلم وذلك من جهتين :

الأولى احتياجها للمنهج المناسب للغرض وهو الإدراك اليقيني لمسائلها ومن المعلوم أن تدوين ذلك المنهج وإحكامه كان على يد أرسطو نفسه .

الثانية اقتصار البحث إلى ما قبل سقراط وأفلاطون على العلم الطبيعي وإن لم يرقى بحثهم لرتبة العلمية لعين الجهة الأولى أما سقراط وأفلاطون فقد اقتصروا على مقاربة مسائل بعينها على شكل محاورات لا تتناسب والتدوين التعليمي خصوصا وأن الطرق التي اعتمدت قد دمج فيها بين الجدل والخطابة والأسطورة من جهة وبين البرهان وهذا أيضا خلل آخر يتنافى مع ما هو شأن التدوين التعليمي .

ثم إن تعليم أرسطو في العلوم الفلسفية وإن كان مدينا لسابقيه من عدة جهات وبتصريح منه إلا أن ما قام به هو الذي أعطى لتلك العلوم مكانتها العلمية .

وقد قسم أرسطو العلوم الفلسفية إلى أربعة أقسام : علم التعاليم والعلم الطبيعي والعلم الإلهي والعلم المدني وأطلق على الثلاثة الأول الحكمة النظرية والأخير الحكمة العملية والجامع بين هذه العلوم هو المنهج الموصل لليقين بمسائلها وهو البرهان ولذا عنى عناية خاصة بتدوين علم المنطق الذي عده آلة التفكير .

لم يتغير مسمى مصطلح الفلسفة بعد أرسطو وإن انحصر الإهتمام على يد الرواقيين والأبيقوريين بالأخلاق والمنطق وشيء من الإلهيات .

وبظهور المسيحية والأفلاطونية المحدثة تأكد التداول للمباحث الفلسفية في الإلهيات والأخلاق وبرز الصراع بين اللاهوت والفلسفة عند مجموعة من المسيحيين والوثنيين في قبال من رفض المباينة بين الفلسفة واللاهوت واعتبارهما وجهين لعملة واحدة واستمر هذا الصراع في مدرسة الإسكندرية والتباين في النظر إلى الفلسفة إلى أن سيطر الإتجاه المسيحي سياسيا وفكريا وتحول الكثير من الوثنيين إلى مسيحين وانقلب الهجوم على المسيحية إلى الدفاع عنها والممازجة بينها وبين الإلهيات الفلسفية كما تحول الرفض للفلسفة وتوابعها إلى

قبول بغرض الإستفادة والتسخير في مصلحة المسيحية للدفاع عنها وإحكام تشييد أسسها ومبادئها .

نواة التحريف

نتيجة لشراسة النزاع بين الأفلاطونية المحدثة والمسيحية وتصدي الأفلاطونيين للشرح والنشر للتراث الفلسفي وكذا النقد والتنظير المستقل لم يتسنى الإهتمام بالفرز بين الفلسفة التعليمية المحكومة بمنهج البرهان وبين التنظيرات التي حشرت عنوة في الفلسفة بل تعدى الأمر أن تنحل كتب وتنسب لأرسطو تختلف عن كتبه مضمونا ومنهجا وكذا حصل مع أفلاطون .

كما أدت محاولات الشرح المتعددة والمتباينة في كثير من الاحيان خصوصا مع تحول المناهضين للمسيحية إلى مدافعين عنها واختلاف الشروح والتفسيرات للفلسفة تبعا لذلك ومثله الحال في النقد الناشئ من سوء الفهم عند بعض من اشتهر بالشرح لكتب أرسطو بما يتناسب مع الأفلاطونية المحدثة أو المسيحية كل ذلك أدى إلى إضعاف الفلسفة وتمزيقها وتسهيل عملية الإقتطاف والتسخير من قبل الفرق والمذاهب التي نشأت أو اشتهرت في تلك الآونة .

ولأن المسيحية عموما اكتفت من الفلسفة بما ينفعها في الدفاع عن لاهوتها وواجهت بعنف من حاول التوحيد بينهما وحاول أن يجعل الأصالة للعقل-كما حصل مع أوريجانوس(١٨٥ – ٢٥٤م) وتعاليمه حيث رفض البنوة للمسيح كما تتبناه المسيحية واعتبر اطلاق الابن عليه مجازا ولم يرض بجعله في رتبة الأب فعد من الهراطقة ومثله الحال مع النساطرة وكذا مع بطرس أبيلا ردوسن(١٠٧٩م) وكذا الرشديون اللاتينيون كما يأتي الإشارة إليه- لأجل ذلك بقيت الفلسفة لاهوتية على الطريقة المسيحية الشائعة مع الاقتصار منها على الإلهيات الشاملة للبحث حول النفس وللأخلاق بالدمج بين تعاليم بولس وأفلوطين على يد أغوسطينوس(٣٥٤م) الذي رسم الملامح العامة للعقيدة المسيحية في الإلهيات والاخلاق والسياسة ولولا حركة بوئيس(٤٧٠م) وترجمته لبعض كتب أرسطو المنطقية إلى اللاتينية لما كان للتعليم المنطقي أثر في التعليم المسيحي الغربي ولذلك اقتصر على

محاولة بوئيس ولم تتوسع الدراسة الفلسفية في المسيحية الغربية الا بعد دخول الترجمات والكتابات العربية الى اوروبا.

وبدخول الكتابات العربية إلى اللاتينية وبالأخص ترجمات كتب أرسطو وكتابات ابن سينا وابن رشد توسع الإهتمام المسيحي بالفلسفة والمنطق برز كل من ألبير الكبير(١٢٠٦م) وتوما الأكويني(١٢٧٤م)وجيل دي روما (١٣١٦)من جهة كمتبنين لفكر أرسطو كما فهموه مع ميل لابن سينا فدمج بين الأغوسطينية والسينوية والأرسطوطالية على الطريقة التومائية ومن جهة أخرى كانت الرشدية اللاتينية والأرسطوطالية الرشدية المتمثلةبـ سيجر البريانتي وموؤيس الداقياوي ودي جاندون ومارسيل دي بادو والتي قدمت العقل على النقل في أصل الإعتقاد ونادت بفصل السلطة المدنية عن السلطة الكنسية واهتمت بالفلسفة الطبيعية والمنطق بجميع أبوابه ووحدت بين الفلسفة واللاهوت.

إلا ان حركة الرشديين هذه قد كانت صارخة المواجهةلأربعة ركائز أساسية في المسيحية السائدة :

الركيزة الأولى : وتقضيبأن الإيمان والنقل مقدم على العقل وليست وظيفة العقل إلا الدفاع عن الإيمان حتى اشتهرت مقولة (أؤمن كي أعقل وأعقل كي أؤمن) فالمنطلق هو الوحي والإيمان ثم تأتي وظيفة العقل لتعميق وتثبيت ذلك الإيمان .

الركيزة الثانية : وتقضي بقصر الإهتمام المسيحي على الحياة بعد الموت وهجران الإهتمام بالجانب الدنيوي والعلوم المتكفلة لإعمار الطبيعة والإستفادة منها .

الركيزة الثالثة : تقضي بسلطة البابا المطلقة وتبعية السلطة الدنيوية له وإقرار حاكمية الحاكم الدنيوي المرعي من قبل البابا حتى لو كان ظالما وعلى المسيحيين التحمل وعدم الثورة ضد ظلمه .

الركيزة الرابعة : تقضي باحتكار حق تفسير الكتاب المقدس وصياغة العقيدة بالسلطة الكنسية واعطاء حق الدفاع للكنيسة ضد كل من يخرج عن تعاليمها وركائزها مضافا إلى الفصل الذي كرسه ألبير الكبير وتوما الأكويني بين

الفلسفة واللاهوت وجعل مصدر اللاهوت هو الآباء والقديسين وتقديم آرائهم على ما تقضي به الفلسفة .

والموقف الطبيعي والمعهود من الكنيسة تجاه هذه المخالفات كان هو الرمي بالهرطقة والتضييق والسجن والقتل في بعض الأحيان كما حصل مع سيجر البريانتي ولذلك اضطرت الرشدية اللاتينية للعمل في الخفاء بعد تحريم تداول أفكارها إلا أن المطاردة لم تقتصر على من يعلن المبادئ الرشدية بل حتى من يبطنها ويتقي فيها وبات يعرف الفكر الرشدي بالأرسطوطالية الهرطوقية في قبال الأرسطوطالية التومائية الرسمية بل وصل الأمر إلى تحريم تدريس كتب أرسطو في الطبيعياتَ وما بعد الطبيعة بعد أن كان أرسطوطاليس كاثوليكيا بنظر الكنيسة .

ثم إن الرشدية اللاتينية لم تكن في انتمائها لابن رشد خالية من التحريف ولعل ذلك يعود إلى الخلل في الترجمة أو الفهم لكتبه ولذلك كانت الرشدية اللاتينية لتتبنى آراء في غاية الغرابة والبعد عن مقصد ابن رشد وأرسطو .

ثم إنه لم تقتصر المناهضة للسائد المسيحي على الرشدية اللاتينية بل انضم إليها روجر بيكون(١٢٩٤م) والذي عد مؤسسا للتجريبية في العالم الغربي حيث اهتم بالكتب الطبيعية التي ترجمت من العربية ودعا إلى تكثيف الجهود في البحث والتجريب إلا أنه كان على مبدأ التمييز بين الفلسفة واللاهوت واعتبار الفلسفة في خدمة اللاهوت .

إلا أن رفض الكنيسة له كان حاسما فحورب ومنع من تفعيل مواهبه وتطبيق طموحاته في البحث الطبيعي ومن الجلي منافاة هذا الموقف للفلسفة ولأرسطو وهذا يكشف عملية الإقتطاف التي مورست من قبل الكنيسة وهو موقف طبيعي طالما أن النظر إلى الفلسفة والعقل بما هما في خدمة اللاهوت الذي يتقرر مضمونه وحدوده من خارج العقل من النص ومن إفاضات الآباء والقديسين ولذلك كان من الظلم للمسيحية والفلسفة معا أن يعد رموز اللاهوت في المسيحية فلاسفة بل لم يعدو حالهم التسخير للعقل وقضايا الفلسفة النافعة لهم في خدمة اللاهوت على حد ما فعله المتكلمون المسلمون ولذا فالأولى تسميتهم بالمتكلمين المسيحيين وتسمية فكرهم بالكلام المسيحي .

وسيظهر في ما بعد اقتطاف آخر في ما يتعلق بالمنطق يكشف عنه كلام ديكارت في حركته الإعتراضية على السائد المسيحي وهذا الإقتطاع والتشويه الذي سينبه عليه ديكارت سيكون بعينه موجودا في الكلام الإسلامي عند مناطقة المتكلمين .

ورغم المواقف التي عملت الكنيسة على اتخاذها تجاه الخارجين عن ركائزها بإنشاء محاكم التفتيش وأساليب القمع لهم إلا أن أعداءها لم يكونوا على الضعف الذي يسمح لها بالقضاء عليهم بل الأمر بالعكس فإن المناهضة لم تقتصر على الرشديين والتجريبيين بل كانت الصوفية وكذا الإتجاه المتأثر والمنبهر بالتقدم في مجال العلوم الطبيعية والإختراعات و الإكتشافات ويضاف إلى ذلك انتقال مجتمع القسطنطينية العلمي والفني إلى أوروبا بعد سقوط القسطنطينية .

كل ذلك كان له شديد الأثر في محاصرة الكنيسة وإضعافها في ما يسمى بعصر النهضة حيث تملك الإنسان الإعتزاز بنفسه وقدراته نتيجة التقدم والنجاح وتعالت أصوات التجريبيين والماديين وبدأ الهجوم على الممارسات العقلية والنزاعات بين اللاهوتيين والفلاسفة وتم رفض التميزات العقلية بين الكليات والأشخاص وظهر المذهب الإسمي وكذا التميز بين المادة والصورة وبين العقل المنفعل والعقل الفعال والنفس والبدن وغير ذلك من التميزات الخاصة بالعقل ولا تظهر للحس والتجربة .

كما تم رفض إمكان الإستدلال على الوجود الإلهي وحصر الإعتقاد بالإيمان به وبدأت الآراء الطبيعية والكونية لعلماء الطبيعة والفلك المخالفة للسائد المسيحي اعتمادا على إفادات النصوص المقدسة بالبروز والإشتهار وبرز فرانسيس بيكون كثائر على السائد في التعليم المنطقي مدعيا تأسيس منطق جديد متقوم بالإستقراء واضعا توصيات من شأنها حفظ الموضوعية في البحث معلنا ضرورة هجران البحث عن العلل والأسباب للأشياء وحصر الإهتمام بالبحث التجريبي من حيث يصب في توفير الراحة والخدمة للإنسان الذي كان في نظره متقوما بجانبه الحسي والمادي فقط .

ورغم المواقف الكنسية المتشددة والتدابير الصارمة التي اتخذت إلا أنها كانت عاملا مفعلا للحركة الإعتراضية خصوصا مع انتشار الكتب إثر اختراع المطبعة وبدء حركات محو

الأميةإذ رغم بلوغ التشديد والقمع حدا دمويا لا يتاق إلا أن النتيجة كانت بداية ما يسمى بعصر الحداثة والتنوير .

وبمجيء ديكارت الذي أعلن بكل صدق نية ضرورة التخلص من التخبط السائد والخلاص من العنجهية الكنسية والفلسفية المتخبطة وضرورة إعادة التأمل في المنهج السائد في مقاربة القضايا الفكرية فحاول تقديم ما يقود إلى تلك الغاية فبدأ أول ما بدء بوضع المنهج ولكن وضع المنهج يحتاج إلى مايبرره مع وجود المدارس والتيارات المسيطرة على الساحة الفكرية فبدأ من الشك بكلم وروث وكل فكرة والتوقف عن الإعتقاد بأي فكرة قابلة للتشكيك طالما أن الغرض هو المعرفة اليقينية فيجب أن يكون المعيار يقينياً.

كان ديكارت مطلعاً على ثلاثة علوم أو أنها طلع عليها في الجملة ليحص لغرضه بالمعرفة اليقينية وهذه العلوم الثلاثة هي المنطق والهندسة والجبر ولكنه بعد اطلاعه ودراسته لشيء منها يقول التالي:

(ولماكنت أحدث سناً اشتغلت قليلاً بالمنطق من بين اقسام الفلسفة وبالتحليل الهندسي والجبر من بين أقسام الرياضيات وهي ثلاثة علوم أو فنونك ان يبدو لي أنها لابد أنت مدمشرو عيب شيء ولكنني عند امتحانها تبينت فيما يختص بالمنطق أن أقيست هو أكثر تعليماته الأخرى هي أدنى أنتفع في أنتشر حلل غير ما نعرف من الأمور لا في تعلم تلك الأمور بل هي كمن ينفع أن يتكلم فيما نجهل من غير تمييز. ومع أن ذلك العلم يشتمل في الحقيقة على تعليمات كثيرة جدا صحيحة ومفيدة فإن فيه أيضاً غيرها إما ضارة وإما عديمة النفع وهي مختلطة بها بحيث يكاد يكون فصلها عنها من المتعسر مع أنه فيما يختص بتحليل الأقدمين وبجبر المحدثين ففوق أنها لا تتسع إلا لأمور مجردة جداً وتبدو كأنها لا تطبيق لها فإن الأول مقصور دائما على النظر في الأشكال بحيث لايقدر على أعمال الفهم دون إجهاده للخيال و في الأخير يتقيد بقواعد و رموز جعلت منه فنامبهم او غامضا يحير العقل بدلا من أن يكون علما يفقه وهذ اما كان سببا في أنني فكرت في وجوب البحث عن منهج آخر يكون مع احتوائه على مزايا تلك العلوم الثلاثة خاليا من عيوبها وكما أن كثرة القوانين كثيرا ماتهيء المعاذير للنقائص بحيث تكون الدولة خيراً حكم او نظاما عندما لا يكون لديها

من القوانين إلا القليل جدا فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة كذلك اعتقدت أنهبدلا من هذا العدد الكبير من المبادئ التي يتألف منها المنطق فالأربعة التالية حسب يشرط أن يكون عزمي على أن لاأخل مرة واحدة بمراعاتها صادقا ودائماً)[٢]

ثم إن ديكارتلخص قواعده الأربعة جامعاً بين جنبتين : الجنبة النظرية والجنبة التطبيقية إذ إن قواعده لاتصف كيف يكون التفكير فقط بلفيها توصيات عمليه لحفظ التطبيق للقواعد التفكيرية وهذه القواعد هي:

الأولى: ألاأقبل شيئا ما على أنه حق ما لم أعرف يقيناً أن هكذا لك بمعنى أن أتجنبب عناية التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر و ألا أدخل في أحكام ي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك.

الثانية: أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها إلى أجزاء على قدر المستطاع على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه.

الثالثة: أن أسير أفكاري بانتظام بادئ اَبأبسط الأمور وأسهلها معرفة كي أتدرج قليلاً قليلاً حتى أصل إلى معرفة أكثرها ترتيباً بل وأن أفرضت رتيباً بين الأمور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع.

الرابعة: أن أعمل في كلا لأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئاً.

نعم إن ديكارت عندما بدأ في بناء فلسفته متقيداً بالقواعد التي ذكرها فشك في كل الأشياء وعندما استغرق في شكه تنبه إلى أنه يشكو يفكر فحكم بأنهم وجود فلو لم يكن موجوداً كيف كان ليفكر و يشك.

ومنشدة وضوح هذه الفكرة وتمييزها كان تثقته أنه يقول الحق فاتخذ من ذلك الوضوح والتميز الشديد قاعدة عامة (أن الأشياء التي نتصورها تصور اَقوي الوضوح والتميز هي جميعاً حقيقية) غير أنه يعود ليعترف أنه نا كصعوبة في أن نبين ما هي الأشياء التي نتصورها متمايزة.

ثم إن ديكارت يشر عل يجد في نفسه أنه كما لما إلا أنه ناقص لمكان أنه يشكف تصور ما هو أكمل من هو من عأنتكونهذه الفكرة منشأ ممن هو ناقص مثله أو منذ اته كاست حالة وجود شيء عن العدم و بالتالي ليست هذه الفكرة إلا منال موجود الأكمل و هو مصدرها فهو موجود.

وهنا ديكارت يستعمل قانون العلية دون أن ينص على أنه من القواعد اليقينية التي يعمه او يستحيل أن يشك بها بل ارسلها ارسال المسمات المفروغ عن صحتها باستعمالها ياها بلصرحبر جوع القاعدة إلى التناقض وإنفرض رجوع الفكرة عن الاكمل إلى غير الأ كمل موقع في التناقض وبالتالي هو اخذ بقاعدة امتنا عالتناقض دون التنصيص عليها.

وهذه المحاولة من قبل ديكارت وكلامه الذي نقلناه بطوله يبين أن التداول علم المنطق كان محشوا بكثير من المباحث والتفريعات والتوسعات التي جعلت منه مرهقا قليل الفائدة على ما هو عليه مقصورا على القسم الصوري إذ هو القسم الذي ينطبق عليه وصفه له إذ إن القسم الصوري من المنطق صالح لأن يستعمله طالب الحق كما طالب التضليل وكذا المبرهن والمجادل والخطيب والشاعر كلهم على حد سواء في استعماله ولا يصلح بمجرده لضمان حصول العلم الحقيقي .

وهذا في الواقع اقتصاص واقتطاع وتزوير إذ المنطقي وكما ذكر أرسطو في أول كتاب القياس إنما يطلب أول ما يطلب العلم البرهاني ويبين أن تحقيق هذا الغرض يكون في صناعة البرهان التي يعد المنطق الصوري مبدأ ومقدمة لها فكيف يصح اختزال المنطق في مقدمات غرضه الأولي والأساسي أي القسم الصوري منه .

وهذا الحال هو بعينه الذي أصاب المنطق عند المسلمين بحيث ركز الإهتمام على الجانب الصوري وامتلأت الكتب بالحواشي والإشكالات غير الدخيلة بما هو غرض المنطق دون التركيز على ما يقوم به غرض المنطقي وهو صناعة البرهان فكادت تحذف سوى إشارة بسيطة في أواخر الكتب المصنفة التي استعيض بها عن كتب المنطق التي وضعها الحكماء والفلاسفة في اليونان والإسلام .

وهذا لعمري لأمر طبيعي فطالما أن النظر للفلسفة والمنطق والعقل بشكل عام كأداة تعين في ترسيخ عقائد اللاهوت سواء كان إسلاميا أو مسيحيا فإن الإستخدام له سيقتصر على ما ينفع في تلك المهمة ومن الجلي عدم الحاجة لصناعة البرهان بل هي مضرة ومخربة باعتبار أنها تجعل الأصالة للعقل وتفرض البدء من اليقيني غير القابل للشك والزوال وتفرض شروطا صارمة على عملية الإستدلال بما يزيد بمراتب كثيرة عما ذكره واختاره ديكارت نفسه .

ورغم ان محاولة ديكارت الصادقة كانت مصحوبة منه بالقلق من سوء الإستخدام بحيث صرح في آخر كتابه التأملات الأولى أنه يخشى أن يساء استثمار كلماته ولذلك فإنه اعتبر نفسه مناقشا للفكر السائد دون أن يتجرأ وينسب ما هم عليه إلى نفس أرسطو أو من ادعى الكنسيون الإنتماء إليه .

إلا أن خشية ديكارت كانت واقعا وسيتم استثمار محاولته أسوء استخدام وسيقضى على كل محاولة للجمع بينه وبين ارسطو كما كان يدعو إليه ليبنتز كما سيساء تقديم الفكر الأرسطي والعقلي عموما والإعلاء من شأن فرانسيس بيكون ثم ديكارت ثم هيوم الذي هيأ كفن الفلسفة والعقل تمهيدا لأن يقوم كانط بتكفينهما ودفنهما .

تعريف الفلسفة

تفصيل الكلام بأن نقول:رغم ما ذكرناه عن علم المنطق والحال الذي كان عليه عند أرسطو وكونه متقوما بصناعة البرهان التي يبين فيها كيفية اختيار مضمون الدليل والشروط التي يجب توفرها في مضمون الدليل حتى يكون محصلا للغرض الأسمى وهو العلم اليقيني غير القابل للزوال بعد أن بين في القسم الصوري منه أي العبارة والقياس كيف يرتب الدليل وشروط ترتيبه بمعزل عن المضمون سواء كان صادقا ام كاذبا حقيقيا ام وهميا وإنما ينظر فيها إلى شروط الترتيب على تقدير التسليم بالمضمون فقط وبالتالي تبين لنا ان جوهر المنطق يقوم في صناعة البرهان وفي القسم المادي منه والمتكفل بشروط المضمون والمادة وليس القسم الصوري إلا مقدمة إلا أن الممارسةالإقتطاعية للسائد المسيحي مع المنطق وغرور الحداثة والجهل بحقيقة الحال أديا إلى أن يحصر المنطق بالقسم الصوري ويذهب القسم

المادي في مهب الريح لتشتهر بعد ذلك مقولة أن علم المنطق لا يضمن لنا تحصيل العلم ويتم تكرير عبارة ديكارت السابقة في وصف المنطق ولذلك حق لـ برتراند رسل فيما بعد أن يقول بان دراسة منطق ارسطو لن تعود بالفائدة، إذ كلامه هذا لينطبق تماما على ما عرفه من منطق أرسطو أي منطق الكلام المسيحي ولا شك أن منطقه الرمزي أفضل منه من بعض الجهات على الخلل الذي فيه أما المنطق الحقيقي فرسل وغيره في غيبوبة عنه منذ قرون .

والنتيجة أنه إذا كان منهج الفلسفة قد فقد فكيف سيبقى إمكان لقيام فلسفة بل الأمر سيكون عل العكس تماما وسيبدأ الفكر البشري بالتحريف الفلسفي الذي لن يرجع عنه إلى وقتنا هذا وسيصعب تغيير وجهته وتصويبه ما لم يستيقظ من غيبوبته تلك والتخلص من العقد النفسية التي سببها له القهر الكنسي .

بل الأمر لم يقف عند ذلك الحد من التحريف بل سيكون هناك توسع في عملية التحريف هذهإلى حد لا يطاق ويصعب تصديقه فرغم أن التجربة قد عدت عند أرسطو من مبادئ البرهان ورغم انه أسس لقواعد الإستدلال العقلي ورغم أنه شنع في كتابه الكون والفساد على الفلاسفة السابقين عليه بالإكتفاء بمقاربة قضايا الطبيعة بالعقل فقط وعدم استيفاء البحث التجريبي وبيانه ضرورة اعتماد التجربة في الموضوعات الحسية مع ضم قواعد الإستدلال العقلي إليها رغم كل ذلك فإن المستطلع لكتب التاريخ الفلسفي بل حتى المتسمين بالفلاسفة في العصر الحديث سيجد تقديم أرسطو على أنه أهمل التجربة والإستقراء واعتمد الإستدلال العقلي فقط وسيقدم فرانسيس بيكون ثائرا ومؤسسا لمنطق جديد في قبال منطق أرسطو والحال أن الإستقراء والتجربة كانتا في صلب اهتمام المنطق الأرسطي والطبيعيات الأرسطية وإنما (جريمة) أرسطو كانت بوضعه كل شيء في موضعه بحصره لاستعمال التجربة كمبدأ للإستدلال العقلي في خصوص الموضوعات الحسية وقصر الإستقلال العقلي في الإستدلال على القضايا غير الحسية سواء المنطقية أم الفلسفية العامة أم الإلهية وهذه الحكمة الأرسطية بدل ان تعد مفخرة له أدت وبسبب سوء الإستخدام والإقتطاع إلى ان يقدم الفكر الأرسطي فكرا للعصور المظلمة وما قبل الحداثة .

والأنكى من كل ذلك ان محاولة ديكارت والتي صرح فيها باستخلاصه لقواعده الأربعة من المنطق فإنه قدم كمخالف لأرسطو وثائر عليه ومتخل عن كل موروث وهذا بحد ذاته فضيحة لا ينقضي عارها وعندما أتى ليبنتز وفولف ليحاولا ردا الصدع الذي حُوول حفره كانت النتيجة إقصاء فولف واختزال لايبنتز في بعض نظرياته والتجاهل لدعواه عدم الإختلاف بين ارسطو وديكارت حتى انه عند موته لم يلقى اي احتفاء او تكريم او اهتمام إلا من بعض الجهات غير الأساسية في المجتمع الفكري .

وهذا هو اسبينوزا الذي ثار على النصية اليهودية والطريقة التسخيرية للعقل كما هو الحال في السائد المسيحي والسائد الإسلامي وقدم فكره محاولا الإعتماد على البرهان وجاهدا لتطبيق قواعده وإن كان بصبغة رياضية إذ به يقدم كمؤسس لفكر منفصل عن أرسطو قد جعل المنهج الرياضي منهجا له في قبال المنهج المنطقي والحال أن الرياضيات عيال على المنطق ولكن وضوح موادها وعدم منازعتها بالأعراف والتقاليد والإعتقادات والأهواء لم تكن لتخطئ في تطبيق قواعد المنطق باعتبار ارتكازها على عدم الوقوع في التناقض والحال أن هذا المبدأ هو المبدأ الذي ترجع إليه كل قواعد المنطق بما فيها صناعة البرهان .

أما هيوم فسيكون رجل الفلسفة الحديثة بلا منازع إلى أن يأتي دور كانط الذي سيعترف بأن هيوم هو الذي أيقظه فمحاولة هيوم التشكيكية برفض كل ما عدا العلوم الرياضية والتجريبية وأمره بإلقائها في النار سترسم وجه الفكر الغربي وتقوده إلى حذف الفلسفة من التعليم اللهم إلا تاريخيا على حد تعبير كانط وسيبقى التفلسف كمحاولة للبحث غير الساذج بل المتأمل في قضايا المعرفة والله والنفس والاخلاق وسنأتي على ذلك .

ثم إن قيام هيوم برفض العلية والسنخية وإيكاله الإعتقاد باضطراد الحوادث إلى العادة سيقود المجتمع الفكري في الغرب إلى التيه في محاولة تبرير اليقين في الإستقراء والعلوم التجريبية وسيتم استيراد نظرية توماس بايز من الرياضيات لاستخدامها في تحصيل اليقين وسيعلن المفكرون عجزهم وعدم صلاحية نظرية حساب الاحتمالات لتوفير اليقين وسيوصم المنطق الأرسطي بأنه منطق الدغمائية وادعاء اليقين الأحمق وسيعتبر هيوم كاشفا

لعوره وخلله بل سيستورد الشك إلى الفكر الإسلامي ويوصم المنطق الأرسطي بأنه ادعى موجب اليقين في التجربة دون أن يقدم دليلا عليه وسيعمد إلى ابتكار نظرية اليقين الذاتي تتميما لنظرية حساب الإحتمالات وبالتالي ادعاء حل المعضلة التي عجز عنها أرسطو .

ولكن الفضيحة ستبرز إذا ما رجعنا إلى كتب الفلسفة والمنطق في التراث الأرسطي والإسلامي الفلسفي البرهاني لنجد أن التشويه أو قلة الإطلاع هما السبب وراء هذه الدعاية الإعلامية التي روج لها إلى حد الإستغراب ممن ينتقدها .

وقد يسر الله عز وجل كشف النقاب عن هذا التحريف فقمت بإعادة تأصيل (موجب اليقين في التجربة والتواتر)(وحقيقة الإستقراء وأقسامه الثلاثة) في مقالتين مستقلتين قد تكفلت (أكاديمية الحكمة العقلية) بنشرهما في مجلتها الفصلية كما تعرضت لكل المطالب العلمية التي مرت وستمر في هذا المقال في كتابي (منهاج العقل ودستور الفكر)[٣] الذي تكفل إعادة إحياء وتأصيل منهج العقل البرهاني وكشف اللثام عن الخلل في كل المعارضات عليه فليراجع هناك .

ثم إن الاستغلال لديكارت لم يكن على المستوى الإعلامي فقط بل كان للقاعدة الأولى التي دونها أثر بالغ في قلب الفلسفة رأسا على عقب متى ما انضم إليها هدم هيوم إذ إن قلق ديكارت الذي أبداه حول مناط الوضوح الذاتي وعدم الشك في منطلقات التفكير هيأ للنسبية العملية وسهولة تأييد الفكرة بوضوحها الذاتي وبالتالي استعصاء النقض لأي فلسفة بنحو يقيني في نظر الفلاسفة بالمعنى الحديث للفلسفة فكان أن مهد الطريق لبروز أمثال هيوم وباركلي وشوبنهور وكانط ونيتشه وجماعة فينا وغيرهم الكثير ممن يستعصي إحصاؤهم على المدونين للتاريخ الفلسفي كما تسنى ادعاء عدم الوضوح لأي قضية تتنافى مع الإتجاه الفكري الذي يمثله المنكر .

ولم يقتصر الامر على قضايا المعرفة والميتافيزيقا بل امتد إلى الأخلاق على يدي هوبز وهيوم ولوك وكانط ونيتشه وكانت البرغماتية والوجودية والإنفعالية والنسبية والنتيجة أن اقصى ما استُطيع تبرير الأخلاق به هو ضروريتها للمجتمع الإنساني ببنيته النفسية والإجتماعية كما هو الحال في ضرورية فكرة الإله والموجد فعللت الأخلاق والدين بمعيار

نفعي والنتيجة حذف الأخلاق كما الميتافيزيقا من العلمية والإبقاء على امكان التفلسف وسنأتي لبيان شيء من ذلك .

وعندما جاء دور كانط كانت الأرضية مهيأة لقلب المفاهيم ودفن الفلسفة والعقل البرهاني وادعاء بدء عصر العقل والتنوير ولكن أي عقل العقل المنقاد للحس الثمل بأقداح الخمرة الهيومية والمثالية الباركلية .

ولن يتسنى لي في هذه العجالة أن أبرز وأوضح كل ذلك وإنما أحيل على كتابي ومقالتيّ السابقتي الذكر فقد فُصدت عرى الشك هناك وافتُضِحت الظلال الخادعة ووضع كل شيء في موضعه .

اهل الدار أدرى بدارهم

ثم إن الفلسفة بمعناها الحديث لم تكن بمنأى عن اعتراضات واستهزاءات اهل دارها ونحن فيما يلي سنعرض لجملة من الأقوال استيناسا وليس استدلالا.

قال آلان وود نقلا عن راسل قوله: (انني اضطررت وأنا أتألم إلى الاعتقاد بأن تسعة أعشار ما يسمى فلسفة لا يعدو أن يكون لغوا وأن الجزء الوحيد منها الذي يتميز بالدقة والتحديد هو المنطق وبما أن هذا الجزء ينتمي إلى المنطق فإنه لا يدخل في دائرة الفلسفة).

ويضيف آلان وود من جهته تعقيبا على كلام راسل: (والذي لم يكن ينبغي على راسل أن يقوله هو أن معظم الفلسفة لغو وهراء بل أن يقول إن معظم الفلاسفة زائفون وأظن أن هذا ما كان يعنيه فعلا غير أن أدبه منعه من أن يقول ذلك وهي حجة يمكن الأخذ بها أكثر من غيرها واذا كان لنا أن نرتب الجنس البشري حسب متوسط الأمانة الفكرية فإني أضع في المرتبة الأولى لاعبي الكريكيت المحترفين ثم أضع العلماء في المرتبة التالية لهم ثم الفلاسفة المحترفين في مرتبة أدنى بكثر ذلك أنه من المستحيل أن يكون لاعب الكريكيت زائفا أو دجالا فإذا تظاهر بأنه أفضل في إتقانه للعبته عما هو عليه فسوف ينكشف أمره من أول كرة يلعبها كما أن العالم الذي يستحدث نظرية يعرف عادة أنه يمكن إثبات صحتها أو خطأها بالاختبار العلمي أما الفيلسوف فهو لا يحتاج إلا لكتابة كتاب لا يفهمه أحد دون أن يستطيع إنسان خلال الفترة الباقية من حياة هذا الفيلسوف أن يتأكد ما إذا كان عبقريا أم دعيّا وبهذا

يصبح من السهل علينا أن صفوف الفلاسفة تشتمل على نسبة معينة من الأدعياء غير أن هذا لا يثبت أن الفلسفة في حد ذاتها عمل يقل في قيمته عن العلوم أو لعبة الكريكيت)[٤].

والناظر في هذا الكلام سيتضح له جليا ما كنا نحن بصدده وأشرنا إليه في الصفحات السابقة دون أن نكلف أنفسنا العناء بالكلام أكثر مما قدمناه ولكن نضيف هنا كلاما لـ ولتر ستيس في كتابه حيث قال بعد أن بين النظرة السلبية إلى الفلسفة واتهامها بالكلام في أمور لا أثر لها ولا نفع عملي ينتج عنها وأنها لا تعدو كلاما في الألغاز التي قد تستهوي مجموعة من الناس إلى أنها لا تعود بالفائدة على البشرية فقال:

(صحيح أن الفلسفة تبدو على السطح مجموعة من الألغاز التي لا أهمية لها، مجرد حكايات طويلة تتقبلها العقول الساذجة وصحيح أيضا أن الفلاسفة أنفسهم ينظرون إليها أحيانا هذه النظرة وصحيح أيضا أن بعض الفلاسفة يقضون حياتهم كلها في محاولة حل هذه الألغاز لكنك لو نظرت تحت السطح فسوف تجد أن هناك شيئا مختلفا يحدث وفي اعتقادي أن كثيرا من الفلاسفة لا يرونه.)[٥]

وعندما حاول أن يبرر وينتصر للتفكير الفلسفي ببيان الارتباط بين القضايا التي تعالجها الفلسفة والجانب العملي والإيديولوجي في حياة الإنسان والإشارة إلى أن قيمة الفكرة ليست مرهونة بأثرها العملي فكم من البحوث العلمية في علم الفلك والطبيعيات تخلو عنه ومع ذلك تبقى قيمتها في أنها مما تطوق النفس الإنسانية للعلم به واستكشافه إلا أنه أضاف شيئا في معرض التأييد ولكنه كان على خلاف غرضه حيث قال:

(وعلى ذلك فإن مجهود الفيلسوف يرى أنه محاولة لتحليل وتوضيح الأفكار الغامضة الطافية في عصره... لكن لا بد أن نكون حتميين بنظرتنا إلى الثقافة بمقدار ما نؤمن أن روح العصر تسيطر على النوايا الواعية للفيلسوف وتقحم نفسها في تركيبته العقلية ولا يعني ذلك بالطبع أن الفيلسوف قد يكون أصيلا أصالة عالية كلا ولا يعني أيضا بالتأكيد على أن جميع فلاسفة العصر يقولون الشيء ذاته حرفيا إذ لا شك أن لكل فيلسوف إسهاماته الخاصة ويعبر كل منهم عن روح العصر بطريقته الفردية الخاصة فالوضع هنا هو نفسه كالوضع في حالة الفن فقد نسلم بأن الفنانين مختلفون في مدرسة معينة وحقبة معينة وثقافة معينة لكننا

نسلم أيضا بأن هناك سمات معينة بينهم جميعا لوجود روح واحدة متغلغلة فيهم وتلك هي الحال نفسها في مجال الشعر... شعراء يختلف الواحد فيهم عن الآخر أتم الاختلاف ومع ذلك كل منهم أصيل أصالة عالية وعلى الرغم من ذلك فهم جميعا شعراء رومنسيون.... ومن بين فلاسفة العصر الحديث كان هوبز مختلفا عن هيوم وهيوم عن كونت وكونت عن فاينجر وفاينجر عن البرجماتية والبرجماتية عن الوضعية.لكل فيلسوف من هؤلاء جميعا وجهة نظر أصيلة ويمكن أن نقول بمعنى ما أنهم جميعا يعبرون عن شيء واحد أو عن وجهة نظر واحدة عن العالم كل فيلسوف بألفاظه ومصطلحاته الخاصة).

ثم يضيف قائلا: (ولو تناولنا مسحا سريعا للفلسفة في العصر الحديث من ديكارت حتى عصرنا الراهن لوجدنا أمامنا لأول وهلة خليطا أعمى من الآراء المتضاربة في كل شيء والواقع أن ذلك كثيرا ما كان موضع لوم للفلسفة ولكننا لو نظرنا تحت السطح فسوف نجد أن هناك نموذجا)[٦].

فهذا الذي ذكره يوضح انعدام الرقيب والمنهج في الفلسفة وليس تشبيههم بالفنانين والشعراء بأمر يحل الأزمة بل يعمقها ويزيد الطين بلة كيف ومن موضوعات الفلسفة من ما هو أكثر الموضوعات مصيرية في حياة الإنسان وموضوعاتها الأخرى مما تقوم عليها قائمة تلك الموضوعات المصيرية وكيف يمكن عدّ البحث عن الحقيقة والإعتقاد وقواعد السلوك الأخلاقي والسياسي أمرا يشبه تأليف الفنان لمعزوفة أو رسم لوحة أو نظم الشاعر لقصيدة أو كتابة الأديب لقصة وأي تشبيه هذا يجعل الفكر الفلسفي خاليا من الموضوعية إلا من جهة أنه تفكير خلف الظواهر وتحت السطح ولكن هل يكفي ذلك فإن وضع الخرافات لتعليل الظواهر والأشياء ليصدق عليه أنه فلسفة وهل الفلسفة بهذا النحو من الرداءة حتى يكون أفكارها مرهونة بأصحابها .

إنما ما ذكره في غاية الجودة في مقام وصف الفلسفة الحديثة ولكنه وصف يختص بالفلسفة بمعناها الإصطلاحي المستحدث والذي صار لا يعني اكثر من التأمل والتفكر تحت السطح أما الفلسفة كما اسست وكما وضعت فليست مطلق التأمل والتفكر بل التأمل والتفكر بنحو برهاني يرجع في جميع خطواته إلى قاعدة امتناع اجتماع النقيضين ولقد بين

أرسطو ذلك عندما كان في صدد الرد على الشكاك والسفسطائيين في ما بعد الطبيعة أننا لسنا معنيين بتتبع وقراءة كل من قال قولا وفكر فكرة وإنما نحن معنيون بفهم كل من قال قولا برهانيا .

ويمكن لمن يريد الإستزادة حول واقع هذه الفلسفة التي لا تشارك الفلسفة العقلية العلمية إلا في الإسم فقط أن يرجع لما قاله الدكتور يوسف كرم في كتابه العقل والوجود وما قاله الدكتور فؤاد زكريا في كتابه نظرية المعرفة وفي مقدمته للجزء الثاني من كتاب راسل حكمة الغرب .

نعم للتفلسف ولا للفلسفة

إن هذا الضياع في تحديد الهوية الفلسفية وإعلان امتناع تعليم الفلسفة اللهم إلا تاريخيا وأن الفلسفة لم ولن توجد وأن التعليم سيكون للتفلسف أي لنظرية المعرفة - ولكن وللأسف حتى نظرية المعرفة كما الفلسفة فاقدة للهوية العلمية - فسيبقى التعليم الفلسفي إما تاريخيا وإما نزهة فكرية في نصوص هنا وهناك ومعالجات لغوية واصطلاحية ولكن ذلك سيكون خاليا عن أي اثر ذي نفع ورقي بالإنسان إلا اللهم إخراج الأذهان من حالة التقليد والتبعية إلى حالة العشوائية والتشتت أو كما يسمونها الحرية الفكرية غير القابلة للقياس بمسطرة العلم وإنما مقاربات متعددة بتعدد الأشخاص المفكرين لموضوع واحد كل بما يتناسب وشخصيته وحالته ورؤيته الخاصة .

ولأجل ان هذا الغرض كاف في المقام أخذت منظمة اليونسكو على عاتقها محاولة إدخال التعليم الفلسفي أو قل تعليم التفلسف إلى المدارس في المراحل الإبتدائية المتوسطة وترميمه في الثانويات والجامعات وفي كتاب الفلسفة مدرسة الحرية قامت اليونسكو بشرح مشروعها بعد اعداد احصائيات عن واقع الفلسفة في شتى انحاء العالم.

وفي ما يلي مجموعة من النصوص تم اخذها من كتاب الفلسفة مدرسة الحرية بدأ من المقدمة وحتى الفصل الأخير:

(تسعى هذه الدراسة بقوة فيما تسعى اليه الى ان تبين وتبرهن مرة اخرى على ان المسلمة التي طالما زعمت ان اصول الفلسفة تعود الى اليونان وانه على الفلسفة من ثمة ان تلتمس كل اجوبتها من تلك الاصول هي مسلمة عفى عليها الزمان)

(ما يثير الانتباه في مجال تدريس الفلسفة هو تنوع الممارسات فيه مما يمكن اعتباره ثراء ينبغي الحفاظ عليه من التنميط)

(ينبغي على العموم الدفاع عن كل ممارسة تنمي التفكير اعتمادا على الذات وتقوم ببلورة تفكير موسع اي استقلالية الحكم والفحص الحر للأفكار كما ينبغي تشجيع كل ممارسة تبحث عن المعنى وعن حقيقة ينيرها العقل وتغذي التساؤل وحسن الاشكال وتساعد على وعينا بأصل آراءنا بقصد فحص مدى صحتها ويمكن لهذه الممارسات ذات المقصد الفلسفي ان تتخذ سبلا تربوية ومعنوية متنوعة والواقع ان كل تنميط متشدد لها قد يعارضها للعقل لان ما هو موضوع الرهان هو التربية على حرية العقول الفكرية فيستدعي ذلك حرية المدرسين الفكرية والتربوية من جهة وحرية التلاميذ الفكرية من جهة اخرى التي لا يمكن لاحد ان يحل محلهم بالتفكير بدلا عنهم ولا يتعلق الامر بتاتا بجعل التلاميذ يعتنقون مذهبا ما بل بمرافقتهم كمربين لكي يجدو بالتدريج اعتمادا على ذاتهم اجوبة على اسئلة يطرحونها على انفسهم حول الوجود)

(غالبا ما نسمع ان دور الفلسفة يكمن في تعليم الاستدلال العقلي ويظهر ان في ذلك خدعة ممكنة ينبغي تبديدها منذ البداية هناك مواد اخرى تبدو اكثر قدرة من الفلسفة على تكوين القدرات المنطقية والتحليلية لدى التلاميذ فالتفكر في الرياضيات التي تربي على الدقة التي تتضمنها العادة على البرهنة وهو امر يبدو بديهيا لأول وهلة ويمكن ان نذكر كذلك القوة التكوينية للنحو وخاصة دراسة النحو الاغريقي او اللاتيني وهما ادوات حقيقية للتأطير العقلاني للتلاميذ وازاء ادوات التحليل المنطقي القوية هذه يمكن للتفكير التأملي الفلسفي ان يشعر بالحرج والحال ان وظيفة الفلسفة الاصلية في المدرسة تكمن في انتقاء المعارف وانساق القيم اكثر مما تكمن في تعريف الاستدلال فهي لا تشتغل على مادة صورية في كل تجرد عن المضامين بل تكمن قوتها التربوية في الآن نفسه في البنى النقدية التي

تعلم كيفية استخدامها وفي متن المعارف التي تشكل موضوعا لها، هذا التعلم الذي يشكل بخاصة قدرة على انتقاء ثقافة اي ثقافة المنتقد الخاصة تجعل من الفلسفة وسيلة قوية لتحويل الشخصية ومن حيث هي كذلك ينبغي استعمالها بحذر لانها تصبح مزدوجة على مستويين على الاقل. ان مسألة منظومات القيم والعادات والبنى الابستمولوجية ليست مسألة ساذجة وبسيطة في سن هو سن توطيد الشخصية وهذا الامر يشكل حجة لصالح تقديم سن الاتصال بالممارسات الفلسفية ولصالح الفلسفة من اجل الاطفال)

(القناعات انما هي وهم يشترك فيه عهد من الانساق الوثوقية ويسم هذه النزعة الجوهرية المذهبية اشارت اغلب الانظمة الاستبدادية في الماضي بتعليم انتقاء المذاهب الفلسفية ولازالت تمارسه اليوم وهي تزعم أنها مخلصة في دعوتها لتعليم الفلسفة. والتعليم الفلسفي يجد قوته وحريته في الطبيعة الصورية لبنياته ومقولاته ومفاهيمه هو يمثل اداة للوعي الحر من حيث انه يضع التلاميذ في وضعية تحليل مستقل للوضعيات والافعال والاقوال التي يواجهونها بدل تقديم متن مغلق من المعارف والقيم وبدل ان يواجهوا متونا مذهبية او انساقا اخلاقية او تقاليد معينة. ان الطبيعة الصورية للتربية الفلسفية اي عادة (تظهير معطيات التجربة) تولد الحرية على انها تمكن من القيام بنقد من الداخل نقد ذاتي للانساق الاخلاقية ومتون العقائد التي تتعاقب في التاريخ وتخترق مجتمعاتنا.)

(ان التربية الفلسفية تشكل دائما نقدا للثقافات وعندما تسعى لخدمة الحرية فهي لا تحاول تغيير مضامين اخلاقية او ثقافية او سياسية بمضامين اخرى من نفس طبيعتها انما تهيء لنقد صارم وجذري لكل متن مغلق من الاعتقادات والتعاليم والعقائد لهذا يظل تعليم الفلسفة حقلا حاسما لمعركة تبني معرفة صورية بما تحمله من اخلاق حرة ومنفتحة ومعرفة وثوقية تصاحبها نزعة اخلاقية استبدادية. وكما اشار عدة باحثين فالتكوين في الفلسفة لا يمكن ان يكون له من هدف سوى تحرر التلميذ من المعرفة الوهمية ونفد هذه المعرفة.)

(ولأن الفلسفة تكوّن اول ما تكّون الفكر النقدي للأشخاص فهي تمارس فعلها التحريري عبر سيرورة تربوية هي تعلم في المقام الاول فهم تعقد الفعل الانساني واعتبار كل فعل وكل موقف بعيدا عن اشكال روحية تتعرف على طبيعتها التاريخية وتضعها في شروط

تسمح لها بالتفاعل والتغيير المتبادلة ولا يصبح الحوار بين الثقافات ممكنا الا بفعل هذه العادة التي تقوم على اعتبار عادات واخلاق الاخرين تعبيرا عن بناء للعالم بإمكانه ان يتواصل مع معقوليتنا الخاصة فهي تعلمنا نوعا ما لغة عقلية كونية.)

(ينبغي ان يظل تعليم الفلسفة حرا حتى تستطيع هذه المهمة ان تتحقق كامل التحقق فالحرية الاكاديمية وحرية التعليم والتعلم تمثل شرطا ضروريا للتربية الفلسفية.)

هذا تمام ما أردنا نقله من كتاب الفلسفة مدرسة الحرية ويمكن الرجوع إلى الكتاب للإطلاع على تفاصيل أكثر ونكتفي هنا بالتعليق على المسألة الأساسية التي تتمحور حولها النصوص التي نقلناها من الكتاب فنقول :

إن الغرض الذي ترمي إليه اليونسكو لفي غاية النبل من بعض الجهات خصوصا فكرة التخلص من المعرفة الوهمية واستنقاذ الفكر البشري من عملية التقعيد الفكري بالتقليد والتبعية دون أن يكون المحرك للاعتقاد والمعرفة النشاط السليم من القيود الغريبة عنه إلا أن المشكلة وللأسف تكمن في تقديم الآلية بنحو يخلو فيها الفكر عن مطلق قيد حتى القيد الداخلي العقلي والتي يستند العقل في تقييد عملية التفكير بها إلى غرضه وهو الوصول إلى الحقيقة بمقدار الطاقة والطرق المتاحة وذلك بإرجاع كل الآليات في تقنينها وتطبيقها لحاكمية امتناع اجتماع النقيضين والذي عليه بنا أرسطو المنطق بل اكتشفه بتحرير العقل من كل قيد خارجي غريب عليه .

وبالجملة فإن الحرية الفكرية معنى مجمل فهل المراد الحرية من مطلق قيد حتى القيد الذي يفرضه العقل على نفسه تحصيلا لغرضه من عملية التفكير فلو كان كذلك فلن يكون لتسمية هذا التخلص من القيد الداخلي تحررا أي مصحح أو مبرر لأن التحرر هو من المفروض والغريب وكيف يتحرر الشيء من ذاته إذ لازمه بطلان ذاته وتعطيلها فهذا المعنى من التخلص من القيد هو فرض وتقييد للعقل وليس تحريرا بل استعبادا له للسير في طريق يتنافى وغرضه وذلك بتكريس النسبية والتعددية غير الموضوعية وسيكون فتحا لبوابة التقول والتنظير بلا أي حاكم أو رقيب وليس هذا إلا الفوضى والتسيب الفكري وهذا هو واقع

الفكر الذي يسمى بالفلسفة الحديثة حيث لم يعد هناك ما يميز بين مفكرين هم فلاسفة حقيقيون وبين ادعياء الفلسفة على حد تعبير آلان وود كما مر ذكر كلامه .

أما إذا كان المراد التحرر من القيد الخارجي الذي يسلب العقل موضوعيته ويجبره على الإخلال بمبادئه فهذا لعمري من أنبل الأغراض وقد كان هم الفلاسفة الحقيقين على مر التاريخ ولكن التقديم الذي صدر عن اليونسكو لهذا الغرض لم يكن وافيا بإظهار مقصدها وإن كان خوفها من الوقوع في النسبية قد تردد مرات في الكتاب إلا أنه خوف يجعلنا نميل إلى تبنيها للمعنى الأول من التخلص من القيود لا المعنى الثاني ولعل النصوص التي نقلناها كافية في بيان ذلك .

نتائج وآثار التحريف

وفي الختام لهذا البحث لا بد من الإشارة إلى الآثار الجسيمة التي نتجت عن تحول مصطلحي الفلسفة والعقل إلى مسميين مختلفين يشتركان مع الفلسفة والعقل بالإسم فقط :

الأول حذف تعليم المنطق والأخلاق من المدرسي والأكاديمي .

الثاني سحب صفة العلمية من الفلسفة وحصرها بالعلوم الحسية والرياضية.

الثالث تحول طلب العلم إلى وسيلة للرقي المادي وانعدام الروح العلمية المخلصة .

الرابع تفشي الإنحراف الخلقي وازدياد الجريمة بنحو فاحش وسيطرة الأقوياء والأغنياء على المجتمع البشري.

الخامس هشاشة الفكر العام وصيرورته ضحية للتأثير السهل والتجييش السريع تحت وطأة الخطاب السياسي الماكر أو القبلي المتعصب .

السادس جعل الفكر ساحة واسعة المنافذ سهلة الإختراق على المستويين العقدي والعملي وإيكال مهمة ملئها للبيئة والعادات والأعراف دون أن يكون للعقل أي رعاية وسلطان .

السابع الإستعانة بالقانون الوضعي المحدود بحسب غرضه بفرض النظام العام دون دخالة له في ما هو أوسع من ذلك مما جعل قسما وافرا من المفاسد والمصالح البشرية غير خاضعة للتقنين والرعاية فشاع الظلم والإستغلال تحت وطأة القانون .

كل هذه الآثار وغيرها ما كانت لتكون لو أن التربية المدرسية أخذت على عاتقها بناء جيل متسلح بالعقل البرهاني المتحرر من قيود الأهواء والعصبيات مستقيما على الطريق المحقق لغرضه .

لذا كان الواجب الملح هو العمل على إعادة بناء نظام تدريسي يراعي بناء العقلية البرهانية الصافية والسليمة والشخصية الإنسانية القويمة .

هذا تمام الكلام والحمد لله رب العلمين

هوامش البحث

١. المعلومات التاريخية الواردة في هذا المقال يرجع فيها إلى كل من الكتب التالية : - الفلسفة في أوربا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح لـ د. علي زيعور – الباترولوجي في الستة قرون الأولى لـ القمص تادرس يعقوب ملطي – تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين لـ غنار سكيربك ونلز غيلجي ترجمة د. حيدر حاج اسماعيل تاريخ الفلسفة الحديثة لـ د. يوسف كرم .

٢. ديكارت، مقال عن المنهج، القسم الثاني، ص١٢٧ وما بعدها .

٣. الكتاب تحت الطبع .

٤. آلان وود ، برتراند راسل بين الشك والعاطفة الفصل الرابع والعشرون ص ٢٣٠

٥. ولتر ستيس ، الدين والعقل الحديث ، الفصل السابع ، ص ١٧٤

٦. ولتر ستيس ، الدين والعقل الحديث ، الفصل السابع ، ص ١٧٦ – ١٧٧.

• الباحث محمد سمير ناصر من الجمهرية اللبنانية استاذ في الحوزة العلمية – عضو الهيئة العلمية ومعاون أول لرئيس قسم التحقيق في أكاديمية الحكمة العقلية – أستاذ تاريخ الفلسفة الإسلامية والغربية والمنطق في جامعة أهل البيت في قم المقدسة.